المحاضرة الثالثة: انسان الأطلس الموريطاني وسيدي عبد الرحمان

تشير الدراسات الأثرية إلى أن شمال إفريقيا كان موطنًا لحضارات ما قبل التاريخ منذ أقدم العصور، فقد كشفت الأبحاث عن مواقع أثرية رئيسية تسمح بتتبع التطور المورفولوجي والثقافي للإنسان القديم في هذه المنطقة. ورغم أن العصور الجليدية التي اجتاحت أوروبا خلال العصر البلايستوسين (Pléistocène) لم تؤثر على شمال إفريقيا إلا بشكل طفيف، إلا أن العامل البيئي الأهم الذي أثر في تحركات الإنسان والحيوان كان تكوّن الصحراء الكبرى (الصحراء الكبرى) وتوسّعها الدوري، إن غنى شمال إفريقيا من حيث المكتشفات القديمة والأنثروبولوجية جعلها منطقة مفتاحية لفهم المراحل الأساسية التي أدت إلى ظهور الإنسان، لقد أفرزت الأبحاث الأثرية الميدانية حول فترة ما قبل التاريخ في شمال افريقيا إلى حد الآن على عدة اكتشافات فيما يخص السلالات البشرية التي ثبت استقرارها بالمنطقة، وتعد هذه الاكتشافات نماذج عالمية للأنواع البشرية لما قبل التاريخ بمختلف مراحله وحقبه، وبمختلف سلالاته.

أولا/ الانسان المنتصب أو المعتدل Homo erectus

اكتشف هذا النوع البشري في عدة مناطق من العالم مع نهاية القرن التاسع عشر، ففي أندونيسيا تم العثور على أول نموذج للإنسان المعتدل، ثم توالت اكتشافات هذا النوع في كل من إفريقيا الشرقية والجنوبية وأوروبا وآسيا الشرقية، بالإضافة إلى بلدان المغرب، حيث عثر على أول بقايا للإنسان المنتصب (Homo erectus) في جزيرة جاوة قرب قرية ترينيل (Trinil) على يد الطبيب الهولندي يوجين دوبوا ((Eugène Dubois، الذي نشر اكتشافه سنة 1894 وأطلق عليه اسم "بيتيكانثروبوس إريكتوس" (Pithecanthropus erectus)، ومنذ ذلك الحين، تتابعت الاكتشافات في العالم القديم في: جاوة، وفي جنوب وشرق إفريقيا حيث عُثر على بقايا بيتيكانثروبوس أخرى، وفي الصين حيث اكتُشف الإنسان الصيني (Sinanthropus)، وفي أوروبا حيث تم العثور على أسلاف النياندرتاليين (Anténéandertaliens)، أما في بلدان المغرب العربي، فقبل اكتشاف الإنسان الأطلسي الموريطاني (Atlanthropus mauritanicus) المعروف أيضًا باسم الأتلانثروب، ورغم تجانس الانسان المعتدل إلا أنه يحتوي على بعض الخصائص ذات الطابع الجغرافي والإقليمي، فيعتبر الباحثون هذا الاختلافات نتيجة لتغيرات جغرافية، لذا صنف المختصون هذا الانسان إلى عدد من تحت الأنواع، كل تحت نوع يرجع إلى منطقة جغرافية كبرى، وفيما يخص شمال إفريقيا نجد كل من؛

1/ إنسان الأطلس الموريطاني Atlanthropus Mauritanicus

يعتبر إنسان الأطلس أحد أنواع الانسان المعتدل الخاص ببلاد المغرب، تعود أولى مواقع اكتشافه إلى موقع تيغنيف بمعسكر منذ أواخر القرن التاسع عشر، حيث في سنة 1872م شُرع في تنقيب هذا الموقع الأثري،

وهو يتشكل من هضبة رملية ذات لون أبيض احتوت على عدة أضرحة تحيط بها مجموعة من المقابر، وقد أدرك صاحب الأرض بالافوان (Balavoine) منذ البداية أهمية هذا الاكتشاف، وسرعان ما انضم إليه عدد من العلماء آنذاك مثل توماسيني (Tommasini)، بوميل (Pomel) وبالاري Pallary، هذا الأخير قام بمجموعة من الحفريات سنة 1886م، حيث كشف عن نتائجها أثناء مؤتمر عقد سنة 1888م، ولكن الفضل الأكبر يعود للباحث كاميل أرامبورغ Arambourg الذي تولى عمليات التنقيب سنة 1931، ثم حفريات أخرى ما بين سنتي 1954-1956م التي توجت باكتشافات هامة، تمثلت في العثور على أكثر من ألف قطعة أثرية، معظمها أدوات حجرية مزدوجة الوجه (فؤوس يدوية bifaces)، وأدوات ثلاثية الوجوه (trièdres)، وأدوات تشبه الفؤوس الصغيرة (hachereaux)، إلى جانب بعض الرقائق الكبيرة من النمط الكلاكتوني (type clactonien)، إلى جانب كمٍّ كبير من البقايا العظمية الحيوانية مع بقايا بشرية، والتي، جعلت من هذا الموقع واحدًا من أهم مواقع ما قبل التاريخ في العالم، بقايا عظمية تعود إلى حوالي 0,7 مليون سنة، وتتمثل هذه البقايا العظمية في " فكوك سفلية أحدها نصفي وعدد من الأضراس المنعزلة.

تتصف هذه البقايا العظمية بالضخامة، حيث أن الفكوك تتميز بالارتفاع والعرض الهامين وغياب الذقن والأضراس وتشبه أضراس انسان الصين، والنمط المحفور على شكل Y في الأخاديد التي تفصل نتوءات الأضراس، وهي خصائص لا تُشاهد عند أي مجموعة بشرية معاصرة، بما في ذلك النياندرتاليون، والذقن غائب تماما، والجزء الأمامي الذي يُعرف تشريحيًا باسم التحام الارتفاق (symphyse) يتخذ شكلًا منحدرًا إلى الخلف، ويمنح هذا المجموع العظمي مظهرًا بدائيًا وخشنًا واضحًا. كما يحمل مواصفات انسان هايدلبرغ وإنسان بيثيكانتروب "جاوا" و "ألدوفاي" بتنزانيا، من حيث الجمجمة المستطيلة المسطحة، بروز تجويف العينين مع فك سفلي وأسنان ضخمة وعميقة، ويمثل هذا النوع سلف الأنواع التي انتشرت في شمال إفريقيا، هذا واكتشف لهذا الانسان عدة أدوات حجرية أشولية في جملة من المواقع الساحلية والداخلية، كان يستعملها في حياته اليومية، والظاهر أن من خلال المواقع التي تعود لمخلفات هذا النوع البشري قد شملت حضارته كامل منطقة بلاد المغرب.

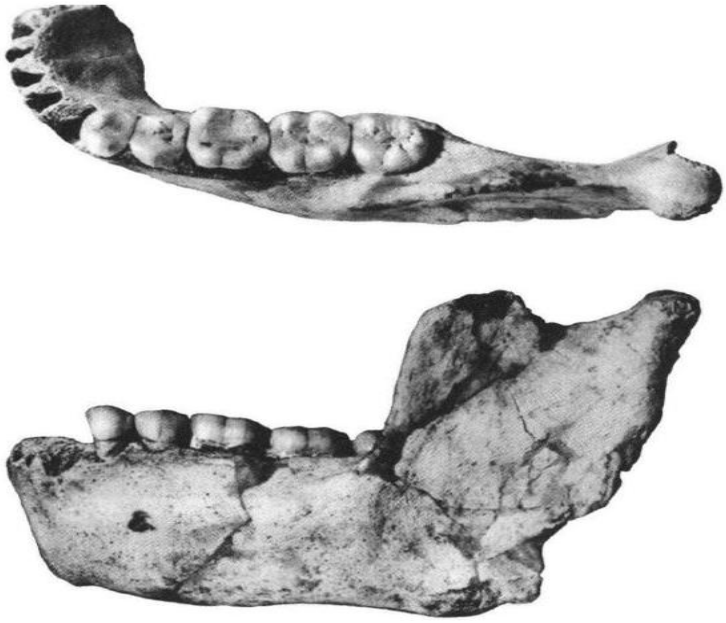

الشكل رقم: بقايا انسان الأطلس الموريطاني المكتشفة بموقع تيغنيف.

Arambourg (C.), op-cit, p 95.

2/ **انسان سيدي عبد الرحمان**: عرف هذا النوع من خلال البقايا العظمية التي عثر عليها في كل من موقع صالي وتمثلت في جمجمة تتميز بغياب الجبهة، ويبلغ حجم المخ حوالي 950 سم^3، وأرخت هذه البقايا 120 ألف سنة، ويتعلق الأمر بـ 23 قطعة من جمجمة إنسان مرتبطة بشكل سيء جدًا ببعضها البعض، الجزء الأيسر من الفك العلوي، ضرس ناب معزول يرتبط بالقطعة السابقة، بعض الأضراس على الجانب الأيسر، والتي تتصل بالقطعتين المذكورتين أعلاه، مع فك سفلي، وفقًا لصابان Saban، يظهر العظم القذالي نوعًا من التناقض بين وجهه الخارجي (exocrânien) ووجهه الداخلي (endocrânien)؛ فالأول يحتوي على خصائص يمكن اعتبارها متطورة، بينما يحتفظ الثاني بمورفولوجيا بدائية، أما الفك العلوي والفك السفلي، وقوس الأسنان في الفك السفلي طويل نسبيًا مقارنة بالإنسان الحديث، كما أن القواطع والأنياب مصطفة تقريبًا في صف عرضي؛ ونلاحظ هنا الشكل المنحني والمنخفض المعروف عند النياندرتاليين، وبالنسبة الأسنان، العليا والسفلى فهي قوية جدًا، ومن حيث التصنيف يقر ديبيناث Debénath بصعوبة تحديده بدقة، فهو يحتوي على خصائص تضعه بين Pithecanthropiens والنياندرتاليين، ويُقارب بعض الأنواع البشرية الأوروبية السابقة لنياندرتال

أدى استغلال محاجر سيدي عبد الرحمن في الدار البيضاء إلى اكتشاف بقايا بشرية عام 1955 من قبل بيبرس وأرامبورغ ضمن صناعة حجرية تعود للأشولي القديم ويتعلق الأمر بقطعتين من فك سفلي، تتميز الأسنان بأحجامها الكبيرة، وتشير خصائصها إلى قربها من انسان تيغنيف، ويؤكد أرامبورغ ذلك في قوله: "ينتمي هذا الجزء على الأرجح إلى نوع Pithecanthropien، وهو بالتأكيد قريب جدًا من إنسان الأطلس

الموريطاني، ومن الجدير بالذكر أن بعض خصائص أسنانه تشبه إلى حد ما خصائص انسان الرباط مع اختلاف في خصائص فكه". هذا وعثر في احدى المحاجر الرملية بالقرب من الرباط على بقايا لقوس جمجمة وبقايا فك علوي، وفك أسفل شبه كامل.

كما يعتبر مقلع "طوما 1" بجنوبي الرباط، من أهم المواقع التي كشفت بقايا بشرية مغربية ضمن سلالة انسان الرباط المعتدل، ففي سنة 1965م كشف علماء الآثار عن بقايا بشرية للإنسان المنتصب القامة، وما بين سنتي 1969 و2009 استخرجت ست بقايا بشرية من هذا الموقع، وهي تختلف قليلا عن تلك المكتشفة في تيغنيف بالجزائر، وفي نفس الموقع تم الكشف سنة 2008 على فك سفلي أيسر، ضمن أدوات حجرية أشولية، تعود هذه البقايا لطفل يتراوح عمره ما بين 2 و3 سنوات، يتميّز نصف الفك السفلي بغياب المنطقة الذقنية وكذلك الجزء العلوي من الفرع الصاعد، أما عظم الفك السفلي فهو طويل وقوي، لكنه منخفض نسبيًا. ولا يُلاحظ عليه وجود النتوء الداخلي للفك، أما الأسنان المحفوظة فهي ضخمة وذات درجة تآكل متوسطة، ويُظهر هذا النصف من الفك السفلي تشابهًا واضحًا مع فك إنسان تيغنيف.

يرجع تاريخ الإنسان المنتصب Homo erectus في السواحل المغربية، إلى ما بين 400,000 و200,000 سنة قبل الحاضر، وكانوا أكثر تطورًا من نظرائهم في تيغنيف، إذ أظهروا ملامح متزايدة الشبه بـ Homo sapiens، وهي سمات ازدادت وضوحًا مع مرور الزمن، ويمثل هؤلاء شكلا انتقاليا بين الإنسان المنتصب القامة النموذجي في تيغنيف والإنسان العاقل البدائي (Homo sapiens archaïque)، فعلى سبيل المثال، تظهر جمجمة إنسان سلا (Salé) مزيجا لافتا من الصفات البدائية والحديثة في آن واحد، فمن بين الخصائص البدائية نذكر:

- سعة المخ محدودة نسبيا وتقدر بحوالي 940 سم^3، مع اتساع حجم صاقورة الجمجمة، واستمرار وجود الحافة الجبهية (carène frontale).
- نتوء الثقب القذالي صغير (torus occipital).
- يتميز بسماكة في العظام.
- محاجر العيون ضيقة .(post-orbitaire)

أما السمات الحديثة فتشمل:

- استقامة وانحناء كبير للعظم الجبهي (frontal)، وتطور في شكل العظم القذالي .
- عظام جداريّة أكثر استدارة واتساع مقارنة بجماجم الإنسان المنتصب الآسيوي

ثانيا/ المميزات العامة لإنسان الأطلس "المعتدل" وأصوله:

- حجم مخ يصل إلى 930-940 م^3.

- له فكوك كبيرة وقوية، ونظام أسنان شبيهة بإنسان الصين (أي ضخمة وعميقة، مقاساتها كبيرة، خاصة الطواحن ذات الجذور العميقة).
- جماجم مستطيلة -مفلطحة- ومسطحة، محاجر العيون فيها محاطة ببروز عظمي متين.

فيما يخص أصول هذه الأنواع البشرية فهي محل خلاف حولها، إذ كانت هناك في البداية فرضية تقول إنّ سكان شمال إفريقيا من هذه الحقبة قد جاؤوا من آسيا بسبب التشابه في السمات مع السِنانثروب، إلا أن هذه الفرضية فقدت مصداقيتها مع مرور الوقت، وكذلك الفرضية الأوروبية التي كانت تقترح هجرة من إسبانيا أو إيطاليا عبر صقلية خلال فترة جليدية قلّصت المسافات البحرية.

لكن لم تتضح فكرة الأصل المحلي للإنسان المنتصب في شمال إفريقيا إلا بعد اكتشاف أدوات حجرية محلية أكثر بدائية من تلك التي كانت ترافق بقايا الإنسان المنتصب (Homo erectus)، مما سمح بترجيح فرضية تطور محلي مستقل لهذه المجموعة البشرية القديمة، أما فيما يخص الاختلاف الفيزيولوجي الموجود بين كل هذه الأنواع فهو بسبب التغيرات المناخية والجغرافية.

إن اكتشاف انسان الأطلس الموريطاني (Atlanthropus) يقدّم الإجابة التي طالما انتظرها الباحثون في عصور ما قبل التاريخ بشأن طبيعة الكائنات التي كانت تنحت الفؤوس اليدوية، والتي تبيّن بالتالي أنها كانت تنتمي إلى مجموعة البِيثيكانتروبيين (Pithécanthropiens)، كما إن ارتباط هذه البقايا بصناعة حجرية مميزة يؤكد الطبيعة الإنسانية لهذه الكائنات، وهي الطبيعة التي كان بعض الباحثين قد شكّك فيها من قبل. وإن وجود هذا النوع في إفريقيا يجعل من هذا القارّة المنطقة الوحيدة في العالم التي تمثَّلت فيها كامل السلسلة المتتابعة لمراحل التطور البشري، بدءًا من الأوسترالوبيثيسينيين Australopithécinés) مرورًا بالبيثيكانتروبيين (Pithécanthropiens) والنياندرتاليين (Néanderthaliens) وصولا إلى الإنسان العاقل (Homo sapiens)، ويؤكّد ذلك صحة الرأي الذي عبّرتُ عنه منذ زمن طويل، خلافًا للنظريات السائدة آنذاك، بشأن الدور المحوري الذي أدّته القارة الإفريقية في التاريخ الحفري لتطور الإنسان.